العلوم عند العرب

(تابع لما في الجزء السادس عشر)

واما الجراحة فلم يكادوا يزيدون فيها على ما تناولوه عن كتب اليونان بل ربما قصروا فيها عن مبلغهم لانها متوقفة على التشريح وهو محرَّمٌ عندهم فكانوا لا يعرفون صفات الاعضاء التشريحية الا بالوصف الذي يطالعونهُ في تلك الكتب . على ان اكابر الاطبآء منهم كانوا يترفعون عن تولي الاعمال الجراحية بايديهم فاذا دُعوا لامرٍ جراحيّ وصفوا طريقة العمل ووكلوا اجراءهُ الى الجرّاح . وبهذا انفردت الجراحة عن الطبّ وترتب على ذلك تراجعها واقتصارها على غير المهمّ من الاعمال كالقدح في العين واستخراج حصى المثانة وما اشبه ذلك الا ما ندر كما حكاهُ الرازيّ من انهُ شهد مرة خرق عظم الفك الاسفل . واول من جمع بين الطب والجراحة مروان بن عبد الملك بن زُهر وكان لهُ باعٌ في معالجة الكسر والخلع وفتح القصبة وغير ذلك . واقتدى بهِ بعض اطبآء وقتهِ من اهل الاندلس واشهر من يُذكَر منهم ابو القاسم الزهراوي وكان بارعاً في بتر الاعضاء واستخراج ما يعترض في الحلق من الاجسام المبتلعة الا انهُ على كل حال كانت الجراحة في منتهى القصور حتى ذكر مروان بن عبد الملك المشار اليهِ انهُ لم يكن في ايامهِ من يحسن ان يثقب عظماً

واما الكيمياء فمعلومٌ ان الغرض منها كان تحويل بعض المعادن الى بعض بناءً على ما اقتضتهُ فلسفة تلك العصور مما لا نطيل بهِ في هذا

الموضع . وقد تناول العرب هذا العلم عن اليونان في جملة ما اقتبسوهُ عنهم من العلوم واشهر من اشتغل بهِ منهم جابر بن حيّان الكوفي حتى انهم كانوا يخصّونهُ بهِ فيسمّونهُ علم جابر ولهُ فيهِ تآليف كثيرة ذكر بعضهم انها تبلغ سبعين رسالةً . وممن عني بهِ ابو نصر الفارابي وابو بكر الرازي وذو النون المصري والحسن بن قدامة ومؤيد الدين الطغرآئي وابن رشد وغيرهم من اكابر اهل العلم فضلاً عن المقلدين وهم خلقٌ لا يحصى وما فيهم الا من امتحن الامتحانات الغريبة وقلَّب الموادّ كل مقلَّب للوصول الى ما يسمّونهُ بالاكسير او الحجر الفلسفي وهو الذي يتمّ بهِ تحويل المعادن كما زعموا فاكثروا من تحليل الاجسام وتركيبها وتحويلها من هيئةٍ الى هيئة بالتكليس والتقطير والتصعيد والتخمير وسلَّطوا بعضها على بعض فكانت لها مفاعيل مختلفة تحوّلت بها الموادّ الى صورٍ شتى بين املاح وارواح وزيوت ومركَّبات متباينة الهيئات والطبائع فكان اشتغالهم بهذه الصناعة اصلاً للكيميآء الحدثة التي استولى بها المتأخرون على ازمّة العناصر كما كانت مباحثهم في صناعة التنجيم اصلاً لعلم الهيئة الذي توصلوا بهِ الى الاحاطة باسرار العوالم

واما علم النبات فكان المشتغلون بهِ منهم نفراً قليلاً ولم يكادوا ينظرون فيهِ الا الى جهة الخواص الطبية وقد اكتشفوا عدة انواع من العقاقير التي لم تكن معروفةً من قبل وهم اول من استعمل خيار شنبر والسنى والتمر الهندي في المسهلات واول من عالج بالعُنّاب والاهليلج والحلتيت وهذا الاخير من مكتشفات الرئيس ابن سينآء . واشهر من تتبع انواع النبات

ووصفها ابو حنيفة الدِينَوَري من اهل القرن الثالث وابو بكر الرازي ولهُ تأليف مطوَّل أتى فيهِ على وصف عقاقير الهند وفارس والديار الشامية وابن سيناء وقد استقرى عقاقير بلخ والصُغْد وعبد اللطيف البغدادي ولهُ كتابٌ دقق فيهِ في وصف النبات بما لم يتقدمهُ فيهِ سواهُ . وممن ألَّف في النبات الشريف الادريسي والغافقي والزهراوي وابن البيطار وقد تقدم ذكرهم قريباً واشهر ما كُتب فيهِ مصنَّف ابن البيطار جمع فيهِ مفردات الادوية والاغذية من النبات وغيرهِ مرتبةً على حروف المعجم وفيها كثيرٌ مما اكتشفهُ بنفسهِ كما نبه على ذلك في مقدمة الكتاب

واشتغالهم بالحيوان كان دون اشتغالهم بالنبات واول ما اخذوهُ عن كتابٍ لذيمقراطيس وآخر لارسطاطاليس عرّبهُ ابن البطريق وهو تسع عشرة رسالة . وقد كتب في هذا الفن جماعةٌ منهم واوسع ما وصل الينا من تصانيفهم الكتاب المعنون بحياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميري ذكر فيهِ ما يزيد على الف نوع قيل انهُ جمعهُ عن خمس مئة وستين كتاباً ومئة وتسعة وتسعين ديواناً من دواوين شعرآء العرب . وممن كتب فيهِ ابو عثمان الجاحظ وابن ابي الاشعث وابن الكتبي وغيرهم الا ان كل تآليفهم قاصرة لم يتعدّوا فيها الوصف النوعيّ

واما علم المعادن فاول من تكلم فيهِ كلاماً صحيحاً ابن سيناء فانهُ قسم المعادن الى اربع مراتب وهي الحجارة والذائبات والاجسام الدهنية (١) والاملاح وبقي هذا التقسيم معتبراً في كثيرٍ من المدارس العليا باوربا الى

(١) المراد بالاجسام الدهنية كل ما يقبل الالتهاب كالكبريت والنفط والخمر واشباهها

القرن الثامن عشر . واكثر ما ذكروا انواع المعادن في كتب المفردات الطبية لبيان خواصها كما فعلوا في انواع النبات وقلّ من افردها في مؤلف مخصوص واشهر من كتب فيها ابو الريحان البيروني وقد جاء في بعض المصنفات انهُ سافر مدة اربعين سنة في تفقد انواع الحجارة الكريمة التي اودعها كتابهُ قالوا ولهُ في ذلك اكتشافات سنيّة

واما علم طبقات الارض فلم نرَ فيهِ كلاماً لاحدٍ من المتقدمين مع أن ارسطاطاليس ذكر شيئاً من اصول هذا العلم فتكلم على تولد الاراضي الطفالية على فُوَّهات الانهار الكبرى وشخوص الجبال بفعل البراكين وكذلك استرابون تكلم على ركوب البحار لليبس وانحسار الماء عن درك البحار بدليل الاصداف وبقايا الاسماك التي تُرَى على رؤوس الجبال وفي جوف الارض الى غير ذلك . وقد جاء للقزويني في بعض هذه المعاني كلامٌ في كتابهِ عجائب المخلوقات لا يخرج غالبهُ عن حدّ الخرافة كما فعل فيما ذكرهُ عن انواع الحيوان والمعادن وغيرها على ان عنوان كتابهِ يدلّ على انهُ كتاب عجائب لا كتاب علم ولذلك حرص فيهِ على جمع الخوارق . لكن جاء في بعض مصنفات الافرنج ان العرب تكلموا على طبقات الارض في القرن العاشر وما يليهِ وهو الاخلق بهم الا انهُ لم يبلغنا شيءٌ من كتبهم

واما الجغرافية فاشتغل بها كثيرون منهم ولهم فيها التصانيف المفيدة واكثر ما تكلموا على جغرافية افريقيا وآسيا وممن اشتهر من جغرافييهم ابن خرداذبه ابو القاسم عُبَيد الله بن عبد الله الجغرافي المؤرخ من اهل القرن الثالث ولهُ كتاب المسالك والممالك . ومنهم ابو اسحق الاصطخري

من اهل القرن الرابع ساح في بلاد العرب وما يليها الى الهند وصنف كتاباً جليلاً سمّاهُ كتاب الاقاليم . ومنهم ابن حوقل وهو من معاصريهِ ساح في الديار الاسلامية وبلاد البربر وجال في الاندلس ودخل العراق واراضي فارس وغيرها وقضى في رحلتهِ نحواً من ثمانٍ وعشرين سنة وألَّف كتاباً سماهُ المسالك والممالك والمفاوز والمهالك . ومن اقدم جغرافيي العرب ابن فضلان المتوفى سنة ٣٠٩ وصف بلاد الروس على ما كانت عليهِ لوقتهِ . وممن جاء بعدهُ ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمذاني المعروف بابن الحائك ولهُ كتابٌ في وصف جزيرة العرب . ومنهم ابو الحسن عليّ المسعودي ساح في بلاد فارس والهند وتيبت وجزيرة سيلان وبعض جهات افريقيا والسودان وجنوبي جزيرة العرب والديار الشامية ومملكة الروم ولهُ عدة تآليف في الجغرافية والتاريخ اشهرها كتاب مروج الذهب . ومنهم البيروني الرياضي الفيلسوف المشهور ابو الريحان محمد بن محمد الخوارزمي ولهُ كتابٌ نفيس في وصف بلاد الهند . ومنهم ابو عبد الله محمد الشريف الادريسي من اهل القرن السادس ساح في بلاد الاندلس وشمالي افريقيا وآسيا الصغرى ولهُ مؤلف جليل في وصف افريقيا واسبانيا وايطاليا سماهُ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ولهُ ايضاً وصف فلسطين وبر الشام . ومن معاصريهِ ياقوت الحموي وهو روميّ الجنس ساح في بلادٍ كثيرة دهراً طويلاً ولهُ كتابٌ في الجغرافية رتبهُ على حروف المعجم سماهُ معجم البلدان وهو أشهر ما أُلّف في هذا الباب وأجمعهُ . ومن اصحاب الرِحَل محمد بن جُبَير البلنسي من اهل القرن السادس رحل الى الشام والعراق والجزيرة

وتجول في القطر المصري ولهُ كتاب رحلةٍ مشهور . ومن رحالاتهم ابن بطوطة ابو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي من أهل القرن الثامن ساح في بلاد العراق ومصر والشام واليمن والهند والصين والتتار واتى بلاد السودان وألَّف في ذلك رحلتهُ المشهورة . ومنهم غير اولئك ممن لا نطيل بذكرهم (ستأتي البقية)

كلامٌ صحيّ في الشعر

لحضرة النطاسي البارع الدكتور اديب افندي الزيات

انهُ مع ما بلغ اليهِ علم حفظ الصحة في ايامنا من التدقيق والاتساع وتعدد التآليف والمقالات في كل فرع من فروعهِ قلما ترى من تعرض للكلام عن صحة الشعر ووسائل الاعتناء بهِ والنفر اليسير الذين كتبوا في هذا الموضوع كانوا مختلفين في الرأي متباينين في المبدأ فضلاً عن ان كتاباتهم محصورة في بعض المؤلفات التي لا يتيسر الوصول اليها الاّ لبعض الخاصة

ولما كان الشعر من أجمل ما حلت بهِ الطبيعة الانسان وكان كثير التعرض للآفات المرضية من تغير اللون تارةً والسقوط أو التكسر اخرى فضلاً عما يطرأ عليه من الامراض التي هي أهمّ من ذلك احياناً كان البحث في صحة الشعر من أهمّ المواضيع التي تشمل فائدتها الخاص والعام وقد سُئلنا كتابة شيءٍ في هذا المعنى يستبصر بهِ المطالع فلخصنا في هذه الصفحات أهمّ ما عثرنا عليهِ في التآليف الحديثة المخصوصة وما اقتبسناهُ عن كبار

اساتذة هذا الفن مع ما ساقتنا اليه الخبرة الشخصية فنقول

اعلم اولاً انهُ قد ثبت بعد الاختبار الطويل ان الشعر اذا كان جافاً قليل المادة الدهنية ضعُف وكان عرضةً للتكسر والتناثر واذا كان كثير المادة الدهنية كان كذلك عرضةً للانحلال والسقوط فكلتا الحالتين اذن مضرّتان بحياة الشعر ونموّهِ وانما الحالة الطبيعية للشعر هي المتوسطة بينهما اعني ان لا يكون كثير الجفاف ولا غزير المواد الدهنية وبذلك يكون طويل البقآء غزير النمآء . وحينئذٍ فمن الواجب المحافظة ما امكن على بقآء الشعر في الحالة المذكورة فاذا كان من طبيعتهِ جافاً حسُن ان يليَّن بالموادّ الدهنية منعاً لتكسرهِ وبالعكس اذا كان الشعر كثير الدهنية فينبغي ان يُمتنع ما امكن من استعمال الزيوت والادهان واذا كثرت فيهِ المادّة الدهنية حسُن ان يُفرَك بالكحل (السبيرتو) المخفف او الكولونيا المخففة

ثم ان شعر الرأس يبقى قويّاً نامياً عند من اعتادوا كشف رؤوسهم وبعكسهم الذين يغطون رؤوسهم دائماً سوآء كان بالقبعات الثقيلة أو بالطرابيش أو العمائم وكذلك الذين ينامون وعلى رؤوسهم « الطواقي » فان عاقبة ذلك كلهِ سقوط الشعر والصلع القريب

أما الوسائل التي يجب اتخاذها لحفظ الشعر في حالتهِ الطبيعية اي في غير الاحوال المرضية فاهمّها النظافة لتخليص الشعر من كل ما يعلق بهِ من الغبار الذي يحملهُ اليه الهوآء السائر ومما يفرزهُ عليهِ الجلد من العرق والمواد الدهنية والقشرة وغير ذلك مما لا يخلو من الجراثيم المرضية بحيث انها اذا أُهملت تولد عنها كثير من امراض الشعر والجلد الشعري كالهبرية

والصلع والاكزيمات المختلفة والقرع وغيرها. غير ان التنظيف انما يجب ان يكون عند الحاجة اليهِ وعلى قدرها فلا يجوز المبالغة فيهِ الى ما فوق اللزوم خوفاً من الوقوع في الشطط لانهُ اذا كان اهمال الشعر مضرًّا فالاكثار من التنظيف والفرك العنيف قد يفضي الى ما لا تحمد عاقبتهُ والحكمة في الاعتدال

ولما كانت وسائل التنظيف تختلف بتفاوت السن فنشير اولاً الى الطرق الواجب اتباعها في الاطفال ثم نذكر ما يجب عملهُ فيمن هم فوق ذلك سنًّا

اما الاطفال فكل الامهات يعلمنَ انهُ كثيراً ما يظهر في المولود في سنته الاولى قشرة في قمة الرأس رخوة صعبة الاستئصال ذات لون اسمر ضارب الى الصفرة وهذه القشرة مكونة من مادة دهنية يفرزها جلد الرأس فتمتزج مع القشر وما يلحقهُ من الغبار ويسميها بعض العامة خبز الرأس وكثيرٌ منهم يتركونها وشأنها لظنهم ان ازالتها قد تؤذي الطفل والحقيقة على عكس ذلك أعني ان هذه القشرة اذا بقيت على الرأس فقد تكون سبباً للاكزيما الشعرية وموطناً للمكروبات ومرعى للهوام. وعليهِ فمن الضروري نزع هذه القشرة والطريقة في ذلك ان تلين بزيت اللوز او بزيتِ الخروع المعطر مدة اثنتي عشرة ساعة ثم يُغسَل الرأس بالماء الفاتر والصابون او بغُلاية خشب البناما ويُعاد ذلك كل ثمانية أو كل خمسة عشر يوماً مرةً. وعلى كلٍّ فلا يجوز استعمال الصابون المهيج مثل صابون البوتاس والقطران وغيرهما ولا يُفرَك الشعر فركاً عنيفاً

واما فيمن هم فوق سن الطفولية فلا بد من تنظيف الشعر بغسلهِ مرةً في الاسبوعين او الثلاثة لكنهُ يحسن غسلهُ مرةً في الاسبوع في البلاد الحارّة نظير القطر المصري لكثرة التراب والغبار فيهِ ومن فاحش الغلط ان يُغسَل الرأس كل يوم بالمآء الكثير اذ ان تنشيفهُ صعب وفي الغالب لا تعود الى الشعر مادّتهُ الدهنية التي يفقدها بالغسل وهي ضرورية لحفظهِ من الآفات المرضية فيصير جافاً سريع التكسر

ولا بأس من غسل الرأس بصابون القطران او الرزورسين او البوتاس وهذا خصوصاً اذا كان الشعر من طبعهِ كثير المادة الدهنية . واذا كان جلد الرأس سريع التأثر فيغسل بغُلاية خشب البناما او محلول البورق على نسبة ٤ ٪ والغسل يكون بالاصابع او بشعرية (فرشاة) نظيفة جدًّا او بقطعة من القطن الهيدروفيل وهو الافضل ويُفرَك الجلد بقوةٍ حتى تُزال عنهُ الاوساخ المتلبدة عليهِ . ولا ينبغي ان يُفتَل الشعر في اثناء الغسل ولا ان يُجذَب جذباً عنيفاً بالمشط لتخليصهِ او لازالة ما يتخللهُ من الاوساخ . ويستحسَن استعمال المآء السخن او مآء البورق المسخن ومتى ملأ الزَبَد الشعر يُغسَل بمآء دافق ثم ينشَّف تنشيفاً تاماً بان يُفرك فركاً خفيفاً بفوطة ثم يلفّ الرأس بفوطةٍ اخرى ناشفة دافئة . ومتى تمّ جفافهُ يُدهَن الشعر بقليلٍ من زيت اللوز الحلو او زيت الخروع المعطَّر بعطر البرغموت ليعوّض على الشعر المادة الدهنية التي زالت عنهُ بالغسل لكن يكتفى منهُ بالقدر القليل بحيث يكون الشعر لا جافاً ولا كثير المادة الدهنية كما قدمنا

هذا أهمّ ما ينبغي معرفتهُ لاجل نظافة الشعر وغسلهِ وسنأتي في احد الاجزآء القادمة على تتمة ما يتعلق بهذا الباب من كيفية استعمال ادوات التمشيط والصبغات الشعرية وكيفية قص الشعر لمنع العدوى وغير ذلك

النفس

بقلم حضرة الاب الفاضل الخوري قسطنطين الباشا

وقفت على الاقتراح المدرج في الجزء الاخير من مجلتكم الضيآء (ص ٥٦٤) فيما يتعلق بتعريف النفس ومقرّها ولما كان هذا البحث مما يهمّ كل احد احببت ان اورد فيهِ ما انتهت اليه اقوال الحكمآء بما امكن من الاختصار فاقول

لا ريب ان الانسان مركب من جوهرين يختلف كلٌّ منهما عن الآخر بالافعال والصفات والذات وهما النفس والجسد الا ان النفس اخفى سرًّا وادقّ بحثاً ومن ثم اختلف العلماء في بيان حقيقتها فانقسموا الى مذهبين يتفرّع كلٌّ منهما الى عدة فروع . الاول مذهب الروحيين الذين قالوا انها روح وهو مذهب اكابر الفلاسفة والعلمآء في كل عصر واعتقاد اهل الاديان اجمع من موحدين ومشركين . والثاني مذهب المادّيين الذين قالوا انها جسم لا تختلف عن المادة او نتيجةٌ حاصلة عن الجسم وصفة لازمة لهُ كالجاذبية والكهربائية وهو اكثر تشعباً وتقلباً من الاول . وقبل ان نخوض في هذا البحث لا بد لنا من التنبيه الى بعض امور لازمة نجعلها توطئةً وتمهيداً لهُ فنقول

اولاً　ان المراد بالماهية الصفة الذاتية التي تقوم بها ذات الموجود الجوهرية وحقيقتهُ وعنها ينشأ باقي صفاتهِ الثانوية الملازمة لهُ او العارضة

ثانياً　ان ما نوردهُ من الادلة ثابت على مبدإٍ مقرر لا اختلاف فيهِ وهو اننا لا نعرف ماهية الاشيآء بذاتها رأساً اي لا ندركها الا من طريق النظر والاستدلال

ثالثاً　اذا غابت عنا ماهية الاشيآء او خفيت حقيقتها فلنا من افعالها ما يدل عليها اذ لا بد لكل فعلٍ من فاعلٍ مناسب لهُ يصدر عنهُ مباشرةً بحيث يكون اقرب دليلٍ عليهِ لشدة الملابسة بين المعلول والعلة والفعل والفاعل . وعليهِ فلو فرضنا حصول فعلين مختلفين نحكم بلا تردد انهما من سببين مختلفين طبعاً وان كانا متشابهين شكلاً ولا نشك في صحة ذلك ما لم نرفض حكم العقل او نفقد قوة الاستدلال

رابعاً　ان كل ما يأتيهِ الانسان من الافعال مما لا تصح نسبتهُ الى الاجسام يجب ان ينسب فيهِ الى النفس اذ ليس لهُ علةٌ مناسبة فيهِ سواها سوآءٌ كانت هذه العلة السبب الاول العامل في تلك الافعال كالفكر مثلاً او السبب الثانوي الذي يتصرف فيها كفعل الجاذبية فانها عامة في كل الاجسام الا ان تصرّف الانسان فيها حتى يدك الجبال ويرفع الاثقال لا يصح ان ينسب الى جسمهِ وانما يجب ان ينسب الى قوةٍ متصرفة فيهِ غير الجسم وكذلك قوة السمع فانها مشتركةٌ بين كل انواع الحيوان الا ان كمالها في الانسان وتصرّفهُ فيها حتى تؤثر فيهِ الكلمة وتدفعهُ الى اقصى البلاد ومقاساة الاهوال لا يصح ان ينسب فيهِ الى المبدأ الحي المشترك

بينهُ وبين الحيوان وانما يجب ان ينسب الى مبدإٍ عاقل يدرك ما لا تصل اليه الحواس من المعاني والصور العقلية المجردة

خامساً اذا تقرر ذلك يسوغ لنا ان نتخذ كل فعلٍ من افعال الانسان دليلاً على ماهية نفسهِ سوآء كانت هذه الافعال عقلية صرفةً او حيوية يشترك معهُ فيها انواع البهيمة او جسمانية عامةً في المادة . الا انهُ لما كانت هذه الافعال كثيرة لا تقع تحت الحصر ولا سبيل الى بيان ما ينفرد بهِ الانسان منها نقتصر على الافعال النفسانية المحضة او العقلية ونذكر كل فعلٍ مع ما يشاكلهُ ونتخذهُ دليلاً على المطلوب وهو ماهية نفس الانسان

***

فالدليل الاول الوجدان وهو ادراك الانسان وجودهُ الذاتي وما يتمّ بهِ من فعلٍ وانفعال ولا بد لذلك من انعكاس المبدأ العاقل على ذاتهِ بحيث يكون موضوع الادراك ومحمولهُ واحداً اعني ان يكون الفاهم عين المفهوم وهذا الاتحاد التامّ لا يمكن ان يكون في الاجسام مهما كانت لطيفة التركيب فضلاً عن انها ليس في وسعها ان تدرك شيئاً أثر فيها أو صدر عنها فلا بد ان يكون هذا الوجدان ناشئاً في الانسان عن مبدإٍ بسيط خالٍ من التركيب والتعدُّد على الاطلاق وليس فيهِ شيءٌ من خواص المادة التي بمنعها تداخل الاجزاء تمنع هذا الاتحاد التام

الثاني الشعور وهو ادراك المحسوسات ومعلوم انهُ لا يتم هذا الادراك الا بعد تأثير الجسم على آلة الحس في الجسم الحي ونقل هذا التأثير بطريق

العصب الى الدماغ مركز الحس العام حيث تدرَك فلا يتم اذاً ادراك المحسوسات الا اذا كان الانسان منتبهاً لها وموجهاً قواهُ اليها والا فقد تمرّ الاشباح ولا ندرك لها صورةً ولا معنىً اذا شُغلت النفس بغيرها ومن ثم لا تكون الحواس والاعصاب والدماغ الا آلة تستخدمها النفس لادراك هذا التأثير بصورتهِ الجزئية ادراكاً بسيطاً لا تركيب فيهِ مختلفاً عن المادة وخواصها فلا بد ان تكون علتهُ التي صدر عنها بسيطة لا تركيب فيها مختلفة عن المادة

الثالث الذكر وهو رجوع النفس الى مدركاتها السابقة اي اعادة النظر فيما حُفظ منها ويتم ذلك بثلاثة افعال وهي ادراكٌ سابق وحفظهُ واعادة النظر فيهِ مع اتحاد الفاعل فيها كلها ويلزم من ذلك ان يكون الفاعل فيها واحداً بالذات وحدةً جوهرية تامة لا يتغير ولا يتبدل مطلقاً . ومعلوم ان الجسم عرضة للتحول والتغير فلا يصلح لحفظ ما ندرك وذكر ما نحفظ وينتج انهُ ليس في الانسان قوة مناسبة لذلك لا تتغير ولا تتحول الا نفسهُ وهي مجردة عن خواص المادة بالاطلاق

الرابع الفكر او تصور الكليات وهو ادراك بسيط للشيء من غير ان نحكم عليهِ بامرٍ لا نفياً ولا اثباتاً او هو حصول صورة في العقل مجردة عن الزمان والمكان وعن كل ما فيهِ رائحة التركيب والمادة وهو أبسط افعال الانسان العقلية الذي يدل على ماهية نفسهِ وتجردها عن المادة والتركيب وكونها روحاً بسيطاً يستغني عن الاجسام بافعالهِ وقيامهِ للاختلاف الجوهري بن التصورات الكلية والاجسام أو المادة الجزئية كما تقدم لنا

بيان ذلك في مجلد هذه السنة من الضياء (راجع صفحة ١٤٧ و ١٧٦)

الخامس الحكم أو التصديق وهو نسبة امرٍ الى آخر لعلاقةٍ مشتركةٍ بينهما وهو لا يتم الا بادراك حقيقة المحكوم والمحكوم عليه والنسبة الواقعة بين الطرفين ايجابيةً أو سلبية كالحكم على الانسان بالحركة فان ذلك يقتضي المعرفة بحقيقة الانسان والحركة وما لهُ من الاشتراك فيها فيلزم من ذلك ان يكون مبدأ الحكم فينا مفرداً بسيطاً جامعاً لطرفي الحكم والنسبة معاً لا تركيب فيهِ ولا تعدُّد مطلقاً

السادس الاستدلال وهو انتقال الذهن من حكمٍ الى آخر ملازم لهُ بطريق الاستنتاج لانهُ داخلٌ فيهِ أو بطريق التمثيل والاستقراء لانهُ مساوٍ لهُ ولا بد لهُ من اجتماع معانٍ كثيرة في الذهن من صور كلية وأحكام عقلية حاصلة فيهِ بلا تشويش لكي تتمّ المقابلة وتعرف نتيجة القياس فيجب من ثم ان تكون قوة الاستدلال صادرة عن مبدإٍ روحاني بسيط مجرد من كل تركيب جامع لمعانٍ كثيرة وصور شتى بلا تشويش لانهُ لو كان مركباً من المادّة لامتنع علينا الاستدلال كما يمتنع الحكم لعدم امكان اجتماع المعاني الكثيرة أو الصور المختلفة في الاجسام بلا تشويش ولا اختلاط

السابع الارادة أو الرغبة وهي ميل الانسان الى ما يرى فيهِ نفعهُ فالجسم لا يتحرك الى جهةٍ مخصوصة ما لم يدفعهُ اليها مبدأٌ عاقل يدرك ما هناك من الخير فيسعى في طلبهِ أو يرى خلاف ذلك فيسعى بالفرار منهُ الا انهُ كثيراً ما تحمل النفس الجسم على ملاقاة الاهوال وتجشم المشاقّ والاخطار بل الموت قياماً بالواجب أو سعياً وراء خيرٍ باقٍ أو ذكرٍ دائم

لا يكون منهُ للجسم نصيب بل عذاب وبلاء كقول ابي الطيب

واذا كانت النفوس كباراً　　تعبت في مرادها الاجسامُ

والحاصل انك لا ترى شيئاً من الحيوان يسعى الى ملاقاة الحتوف بنفسهِ غير الانسان فهو اذاً سيدٌ مطلق بنفسهِ وما الجسم الا خادم يستعملهُ في مقاصدهِ ويتصرف فيهِ لمرادهِ وينتج من ذلك ان نفسهُ جوهرٌ عاقل تدرك ولا تخاف ان تموت بموت الجسم

الثامن الانفعالات العقلية كالفرح والحزن فان الانسان تؤثر فيهِ الاسباب الخارجة تأثيراً معنوياً لا يكون في غيرهِ كتأثير معنى الحرب مثلاً فانهُ اذا نظر الانسان الى سوء عاقبتها في جسمهِ أثر فيهِ ذلك كراهيةً لها وخوفاً منها واذا نظر الى ما يحصل لهُ ولوطنهِ من الشرف ان فاز أو مات فيها أثر فيهِ ذلك إقداماً ورغبةً . ومعلوم ان الحصول على هذه العواطف الشريفة وتأثير معانيها الكلية لا يناسب الاجسام الا اذا كانت ذات نفس عاقلة تدرك المعاني المجردة الكلية فضلاً عن كونها حساسة تدرك الصور الجزئية المحسوسة والنتيجة انهُ يجب أن تكون نفس الانسان روحية مجردة عن كل مادّة　　(ستأتي البقية)

﴿ ارباح المعارض وخسائرها ﴾

نشرت احدى المجلات الفرنسوية تحت هذا العنوان ما تعريبهُ

لا شك ان كثيراً من الناس يتشوفون الى معرفة ما سيكون من ثمرة المعرض الحالي في باريز وما يترتب عليهِ من ربحٍ أو خسران وهذا

ولا جرم من الامور المنوطة بالاستقبال فلا يكون الحكم فيهِ مذ الآن الا مُتيسَراً لكن لا بأس في هذا المقام ان ننظر الى ما كان من حال المعارض السالفة في فرنسا وغيرها من البلاد منذ اواسط هذا القرن وللمطالع ان يتخذ مما سنذكرهُ الدليل الذي يرجحهُ

فان اول معرضٍ عام كان كما هو معلوم معرض انكلترا الذي تولى انشاءهُ البرنس ألبرت زوج الملكة ڤكتوريا وقد بلغ رسم الدخول الى قصر البلور الذي كان نكتة المعرض عشرة ملايين ونصف مليون من الفرنكات وبلغ الربح بعد اسقاط النفقات كلها ٢٦٠٠٠٠٠ فرنك

وأُنشئ بعدهُ معرض سنة ١٨٥٥ في باريز فبلغت نفقاتهُ ٢٤٨٥٠٠٠٠ فرنك وكان دخلهُ نحواً من ١٥٠٠٠٠٠٠ فرنك فقصّر الدخل عن النفقة في تلك السنة بين تسعة وعشرة ملايين من الفرنكات

وفي سنة ١٨٦٢ انشئ معرض آخر في لندرا باهتمام البرنس ألبرت ايضاً لكن اتفق في تلك السنة موت البرنس فقصّر الدخل عن النفقات مليوني فرنك على الاقل ثم ان مجلس نواب الامة ابى مشترى القصور المبتناة لهُ في المدينة فتجاوزت الخسارة الى اربعة ملايين

وبعد ذلك اقامت فرنسا معرض سنة ١٨٦٧ فكان الربح من دخلهِ مبلغ ثلاثة ملايين من الفرنكات وبذلك مُحي شيء من ذكر الخسران الذي كان سنة ١٨٥٥

وكأن هذا النجاح جرّأ النمسا فأقامت معرضاً في ڤينّا سنة ١٨٧٣ الا انهُ كان على اثر خسائر باهظة في البلاد واضطراباتٍ سياسية فكانت

خسارة المعرض ٤٩ مليوناً من الفرنكات وهي خسارةٌ فاحشة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المعارض

ثم انهُ بعد ثلاث سنوات اي سنة ١٨٧٦ أُقيم معرض في فيلادلفيا فكانت خسارتهُ على ما يقرب من نسبة خسائر فينا ومع ان زوار المعرض لم يكونوا أقل من احد عشر مليوناً فان الخسارة بلغت اربعة ملايين و ٥٠٠ الف فرنك

وعلى مثل ذلك كانت عاقبة المعرض الفرنسوي الذي انشئ سنة ١٨٧٨ فان زوّارهُ كانوا ١٦ مليوناً لكن دخلهُ لم يتجاوز ٢٤ مليون فرنك وكانت نفقات المعرض ما يقرب من ضعفي هذا الدخل

واخيراً لما اقيم معرض سنة ١٨٨٦ في لندرا كان ربحهُ ٨٨٧٠٠٠ فرنك ثم تلاهُ معرض منشستر سنة ١٨٨٧ وكان ربحهُ ١١٠٠٠٠٠ فرنك ومعرض غلسكو سنة ١٨٨٨ وكان ربحهُ نحواً من مليون و ٥٠٠٠٠٠ فرنك

واربح المعارض السالفة كان معرض سنة ١٨٨٩ فان نفقاتهِ كانت ٤١٥٠٠٠٠٠ فرنك وبلغت قيمة رسم الدخول ٤٩٥٥٠٠٠٠ فكان ربحهُ زيادةً على ثمانية ملايين . واذا اضفنا الى ذلك سائر الارباح التي نجمت بسببهِ كان منها ١٠ ملايين فرنك قيمة مكوس و ١٢ مليوناً ونصف مليون دخل ملاعب التمثيل و ٧٥ مليوناً قيمة تذاكر في سكك الحديد علاوةً على التذاكر المعتادة و ٨ ملايين اجرة مراسلات للبريد

وآخر معرض عمومي بعد سنة ١٨٨٩ كان معرض شيكاغو سنة ١٨٩٣ وكان زوّارهُ نحواً من ٣٠ مليوناً وبلغ ربحهُ ٦ ملايين و ٦٠٠ الف فرنك .

وعليهِ ففي الامل ان المعرض الحالي سيكون لهُ من الفوائد الحسية والمعنوية ما يزيد على جميع المعارض التي سبقتهُ . انتهى

اللحى والسبال

من أغرب ما جآء في تاريخ الرجل اهتمامهُ بهذه الشعرات النابتة في وجههِ لا يعرف لها معنىً سوى التمييز بينهُ وبين المرأة على حدّ ما يُرى من الفروق في المنظر بين الذكران والاناث في اكثر انواع الحيوان فترى اكثر النـاس يتفننون في تشكيل لحاهم وشواربهم على اشكالٍ شتى يُقصَد ببعضها الجمال وببعضها الدلالة على الرجولية الى غير ذلك حتى ان كثيرين ينفقون جانباً من ساعاتهم في تهيئة لحاهم أو شواربهم . وقد كانت العادة القديمة في المشرق اطلاق اللحى والشوارب وكان متقدمو الاشوريين والفرس يحبكون لحاهم حبكاً محكماً كما تراهُ في التماثيل الباقية الى يومنا هذا . وبعكس ذلك متقدمو المصريين فانهم كانوا يحلقون ما على وجوههم من لحى وشوارب الا انهم كثيراً ما كانوا يتركون العثنون وهو ما فضل بعد شعر العارضين ويأخذون مما حولهُ حتى يصير مربع الشكل ويقطعون طرفهُ كذلك وكانت عثانين الملوك طويلة وبخلافها عثانين الرعية فانهم كانوا يقصرونهـا . وذلك كلهُ في غير اوقات الحداد فان الاشوريين والفرس كانوا يحلقون لحاهم والمصريين يطلقونها وكذلك كانوا يفعلون عند قصد التنكيل والعقوبة فان المصريين كانوا يحظرون على المجرمين حلق وجوههم وغيرهم كانوا يحلقون لحاهم وما زال حلق اللحى الى هذا اليوم معتبراً في عامّة بلاد المشرق

من اعظم الاهانات لمن اعتاد اطلاقها

اما متقدمو اليونان فكانوا يطلقون لحاهم الى زمن الاسكندر فانهُ أوجب على قومهِ المكدونيين ان يحلقوها ثم اقتدى بهم غيرهم بعد موت الاسكندر فصاروا جميعهم يحلقونها . ولم تجرِ عادة الحلق عند الرومان الا منذ سنة ٢٩٥ قبل الميلاد فلما ملك ادريانوس امر باعادة اللحى ثم امر قسطنطين بحلقها . وقيل انهم كانوا اولاً يطلقون لحاهم في زمن الشباب فاذا شاخوا حلقوها ما خلا العلمآء منهم والفلاسفة فانهم كانوا يستمرّون على اطلاقها الى آخر حياتهم

اما عند الفرنك فكان اطلاق اللحى واجباً وكانت هي المميزة بينهم وبين الرومان لكنهم لم يكونوا يطيلونها كثيراً وكانوا يعقدونها بضفائر من ذهب ويقيمون لها حرمةً عظيمة حتى انهُ في سنة ٦٣٠ صدر امرٌ بالعقاب الشديد على كل من يقصّ لحية رجلٍ بدون رضاهُ . ويُروى عن شرلمان انهُ كان اذا حلف يقول اقسم بالقديس دانيس وبهذه اللحية المتصلة بعارضيّ . وكان ملوك فرنسا الى عهد فرنسيس الاول يحلقون لحاهم ثم مالوا الى تقليد القديم فاطلقوها وكذلك فعل البابوات ولا سيما يوليوس الثاني اقتداءً باليونان وبقدمآء الرومان . ثم انهُ في عهد هنريكس الرابع عادوا الى حلقها ما خلا بعض المحافظين على القديم ومنهم من كان يترك الشاربين والعنفقة وهي الشعرات تحت الشفة السفلى وتعرف عندهم بالملكية . وفي عهد لويس الرابع عشر ابطلوا الشوارب والعنافق ولما كان زمن الثورة أُعيدت اللحى والشوارب ثم عادوا في زمن الملكية الى حلق اللحى وفي ايام نابليون كانت

العوارض والشوارب والعنافق من خصائص الجهادية

اما الشوارب على الخصوص فكانت عامةً في الشرق ولا سيما عند الصينيين بل الظاهر ان عادة حلق الشوارب لم تُعرَف في الشرق قطّ واما في الغرب فان اليونان والرومان كانوا يطلقونها تارةً ويحلقونها اخرى والفرنك لبثوا يحلقونها الى ان دخلوا غاليا في القرن الخامس فعدلوا الى اطلاقها ثم حلقوها في القرن التاسع وعادوا اليها في القرن الحادي عشر زمن الحروب الصليبية ثم اهملوها في القرن الرابع عشر وردّوها في السادس عشر على عهد فرنسيس الاول وعمّت بين خدام الدين الى عهد لويس الرابع عشر وفي اوائل هذا القرن صدر امرٌ يوجبها على كل جهاديّ من الفرسان ما خلا الدراغون ثم عمّ اطلاقها عند الجميع

مُتَفَرِّقَاتٌ

خصائص التقويم — ذكر بعضهم خصائص للتقويم السنوي منها انهُ منذ الاصلاح الذي تمّ على يدي البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٢ لا يبتدئ قرنٌ من القرون يوم اربعاء ولا يوم جمعة ولا احد وان التقويم الواحد يمكن ان يستخدم بنفسه بعد عشرين سنة

ومنها ان يناير واكتوبر من السنة الواحدة يبتدئان دائماً في يوم واحد من الاسبوع وكذلك كلٌّ من ابريل ويوليو ومن سبتمبر ودسمبر

ومن فبراير ومارس ونوفمبر وذلك كلهُ فيما خلا السنين الكبيسة

ثم انا اذا تفقدنا ايام الراحة عند الامم قديمها وحديثها وجدنا ان كل واحدةٍ قد اختصّت لنفسها يوماً من الاسبوع فالاحد للمسيحيين والاثنان للاغارقة والثلاثآء للفُرس والاربعآء للاشوريين والخميس للمصريين والجمعة للمسلمين والسبت لليهود

اما مطابقة السنة الغريغورية لحركة الشمس فان ما يقع فيها من الخطآء لا يتجاوز ٢٤ ثانية في السنة فيجتمع عن ذلك في كل ثلاثة آلاف سنة يوم واحد

عدد السفن التجارية في العالم — جآء في احدى المجلات الانكليزية ان جملة السفن التجارية في العالم تبلغ ٢٨ الف سفينة منها للانكليز ١٠٩٩٨ فتكون التجارة البحرية الانكليزية نحواً من ٤٠ ٪ من تجارة العالم كلهِ . وبعدها سفن الولايات المتحدة وعددها ٣٠٠٠ ثم سفن نروج وهي ٢٥٠٠ ثم سفن المانيا وهي ١٦٦٦ الا ان محمول السفن الالمانية اعظم من محمول النروجية . وتأتي بعد ذلك سفن فرنسا وايطاليا وهي متقاربة العدد فان سفن فرنسا تبلغ ١١٨٠ وسفن ايطاليا ١١٧٥ . واذا جمعنا سفن انكلترا والولايات المتحدة كانت نصف سفن العالم بالاجمال

اسئلة واجوبتها

المنيا — ارجو الجواب على السؤالين الآتيين

(١) نرى اكثر الجرائد تستعمل لفظ الانخذال للجيش بمعنى الانكسار والفشل ولكني لم اجد ذلك في كتب اللغة فما قولكم فيهِ

(٢) قرأت في احدى الجرائد لفظ « نابوشودونوزور » وكانهُ اسم احد الملوك الاقدمين فمن كان هذا الملك وهل لهُ ذكر في كتب العرب

مستفيد

الجواب — اما لفظ الانخذال فلم يرد في شيء من كلامهم لا بالمعنى الذي ذكرتموهُ ولا بغيرهِ لكن الذي في كتب اللغة خذلهُ وخذل عنهُ اذا تخلف عنهُ وقعد عن نصرتهِ وهذا فضلاً عن كونهِ ليس بالمعنى الذي يريدونهُ لا يصح ان تُبنى منهُ صيغة انفعل لانها للمطاوعة وهي انما تكون فيما يقبل اثر الفعل ولا اثر للخذلان في المخذول كما لا يخفى

واما الاسم الذي ذكرتموهُ فالمراد بهِ بختنصَّر ملك بابل المشهور نقلهُ الافرنج عن لفظهِ الاصلي وهو نبوخذنصَّر فعبَّروا عن الخاء بالشين كما هو اصطلاحهم وابدلوا من صادهِ زاياً ثم كانهُ لم يكفهم طول هذا الاسم فزادوا عليهِ بين كل حرفين مدًّا حتى صار بالصورة التي نقلتها الجريدة . لكن بقي ان الافرنج يلفظون هذا الاسم بالكاف لا بالشين فكان ينبغي على الاقل ان تصوّرهُ بلفظهِ الصحيح حتى لا تضيف غلطاً على غلط

بور سعيد — هل وردت كلمة « تأكسد » في العربية أوَلا يمكن استعمال لفظةٍ غيرها للمعنى المراد بها سليم الخوري

الجواب — اما ورود هذه اللفظة في العربية فانها ليست من كلام العرب ولا كان العرب يعرفون هذا المعنى وان عرفوا بعض الجزئيات الداخلة تحتهُ . واما استبدالها بلفظةٍ عربية فهذه ليست من الالفاظ التي لنا ان نضع بازآئها كما سنبينهُ في تتمة الكلام على التعريب

آثار ادبيّة

المجلة المصرية — مجلةٌ ادبية تاريخية قضآئية اقتصادية علمية زراعية لصاحبها ومنشئها حضرة الكاتب الاريب والشاعر المجيد خليل افندي المطران تشترك في تحريرها لجنةٌ من اعاظم الكتاب ويديرها حضرة الاديب الكاتب محمد افندي مسعود احد منشئي جريدة المؤيد الغرآء . وقد تصفحنا الجزء الاول منها فوجدناهُ حافلاً بكثيرٍ من المقالات والفصول المفيدة في فنونٍ شتى من العلم والادب وسائر المطالب المشار اليها . والمجلة تصدر مرّتين في الشهر في ٤٠ صفحة وقيمة الاشتراك فيها ثمانون غرشاً مصرياً في السنة فنحث جمهور الادبآء وارباب المطالعات على الاشتراك فيها ونتمنى لها الثبات والرواج

فكاهات

رواية

بلايا الحروب[1]

كان في انكلترا في ما مضى من الزمان رجل من الاشراف قد قضى معظم حياتهِ في رغد العيش وسعة اليد ورزقهُ الله ولدين ذكراً وانثى فدعا الغلام اوبري وسمى اختهُ مادلين . ولما ثارت في انكلترا الحرب الاهلية المعروفة بحرب الوردتين سنة ١٣٤٢ قضي على هذا الرجل بزوال السعادة فدهمت جيوش الاسكتلنديين قصرهُ وتركتهُ خراباً فتشتت شمل اهل بيتهِ وفرّ الغلام في ناحية والفتاة في ناحية اخرى فلم يقف لهما على اثر . ولما يئس منهما هرب بزوجتهِ فراراً من القتل ولم يبعد عن القصر الا قليلاً حتى تبعتهُ الجنود وطلبوا منهُ التسليم فأبى وتملقوهُ فلم يرضَ فقتلوهُ وقادوا زوجتهُ اسيرةً لكنها لم تلبث ان برَّح بها الحزن على مصاب زوجها وفقد ولديها فماتت بعد زوجها بثلاثة ايام

اما اوبري فبقي سائراً من بلدةٍ الى اخرى حتى بلغ المعسكر الانكليزي فطلب التطوع في الخدمة وكان لم يزل يافعاً فأبوا قبولهُ غير انهُ لما قصّ عليهم ما اصاب اسرتهُ قبلهُ القائد العام واوصى رئيس فرقتهِ ان يعتني بهِ فانتظم

---

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

في الجيش وابلى في الاعداء بلآءً حسناً · واما مادلين فلم تزل سائرةً واثر فيها الخوف والتعب فوصلت الى شارعٍ منقطع وسقطت على الارض · ومرّ من هناك خادمٌ لبعض بيوت السادات فحملها في عربتهِ الى بيتهِ ولما رجع الى بيت سيدهِ اصحبها معهُ فوجدت مادلين نفسها في قصرٍ اجمل من قصر ابيها بين أُسرةٍ ذات سؤددٍ وغنى عظيم وعلمت انها في بيت اللرد وارِك إِرل سالسبوري · وكانت زوجتهُ الكنتة جوان بلانتاجنت ابنة عم الملك ادورد ملك بريطانيا فلما علمت الكنتة بخبر مادلين اخذتها اليها واتخذتها عشيرةً لها فلم تسمح بفراقها ساعةً · وكانت الكنتة تسعى جهدها في تسلية مادلين فلم يمضِ عليها الوقت الطويل حتى أَنِست باهل الدار وخف حزنها على فقد اسرتها غير انها كانت كلما تذكرت والدتها تنزوي الى غرفتها وتمطر خديها الورديين بدمعٍ غزير ·

وكان اخو اللرد وارِك واسمهُ السير وليم مونتاغ فتىً غض الشباب ومن الفرسان الاشدّآء فاحبتهُ مادلين لكنها اخفت ما بها مخافة ان تستآء الكنتة فضلاً عن انها كانت تشعر من نفسها بانها ليست من مقام السير وليم ولذلك حرصت على ايداع حبها طي ضميرها فلم تبدِ اقل ما يدل على ذلك غير انها كانت كلما وقع بصرها على السير وليم تشعر بخفقان قلبها واضطراب جوارحها وانعقاد لسانها · وكان السير وليم قد اصابهُ ضعف ما اصاب مادلين ولكنهُ شغلتهُ الحرب القائمة عن التصابي فأجّل الاهتمام بعواطف الحب الى ان ينقضي اجل الحرب · وكانت نيران الثورة تخمد مدةً ثم تهيج براكينها باشدّ مما كانت عليهِ تنسف وتدمّر وتخرّب ولا

تخريب بركان يزوف ورأى اللرد وارك ان الاصوب نقل زوجته الى قلعته الشهيرة حيث تكون بمعزلٍ عن مشاهدة اهوال الحرب فنقلها ومادلين ووكل بحراستهما اخاهُ وليم في شرذمةٍ من الجنود وعاد اللرد الى معسكر مليكه للمحافظة عليه والذود عن الوطن

وفازت الجنود الاسكتلندية في بعض المواقع وقصدت فرقةٌ منهم قلعة اللرد وارك وصعدت الكنتة جوان الى اعالي القلعة فرأت الاعداء يقتربون بسرعةٍ فأمرت بعض اتباعها ان يدعو لها السير وليم ولما حضر اشارت بيدها الى الجيش الزاحف وقالت انني افضل ملاقاة هذه العساكر ومقاتلتها على البقاء هنا كالحمام في اقفاصها . فتبسم السير وليم وقال سكّني روعكِ ايتها العزيزة انهُ ليس عندنا الا اربعون فارساً فلا قِبَل لنا بمثل هذا الجيش الكثيف ولكن اذا وصلت الاعداء وعسكرت في السهل امامنا خرجنا اليهم ليلاً واذقناهم الموت الزؤام . ولما خيم الظلام نصبت الجنود الاسكتلندية سرادقاتها واوقدت نيران الحراسة على نيّة مفاجاة القلعة في الصباح . ولما انتصف الليل كانت الكنتة لا تزال تراقب حركات العساكر فرأت فرسانها ينسحبون من باب القلعة بسكونٍ وهم ممتطون خيولهم فجثت على الارض ورفعت بصرها الى السماء وطلبت من الله حفظهم وردّهم مكللين بالانتصار . وبينما كانت جيوش الاعداء لاهية بالطرب والسرور لم تشعر الا وقد دهمها رجال السير وليم بخيولهم وسلاحهم وتناولوهم بالسيوف والحراب فذُعر الاسكتلنديون وهبّ كلٌّ الى سيفهِ فأعملهُ في رأس رفيقهِ وهم تحت ذلك الليل الحالك وبعد معركة دموية استمرّت نحو ثلاث ساعات انهزمت

جيوشهم تاركةً كل ما كان معها من زادٍ وذخيرة وعاد السير وليم الى القلعة منتصراً. فقابلت الكنتة جوان رجالها البواسل بوجهٍ ضاحك ودعتهم الى تناول كاسٍ من الخمر من يدها فشرب الجميع نخب انكلترا وملكها والكنتة

اما السير وليم فكان ينتظر اول كل شيء ان يحظى بمشاهدة حبيبتهِ مادلين ويسمع من فمها كلمة الترحيب واذا بها داخلة وعلى وجهها آثار الكآبة فاخذ يدها وقال ما بالكِ يا عزيزتي مادلين هل غمَّكِ رجوعي سالماً. قالت معاذ الله لكني أخشى سوء العاقبة فلا بد للاسكتلنديين من الرجوع بعددٍ اكثر وتدبيرٍ احكم للاخذ بالثأر . فتبسم وليم وقال انني اعترف لكِ الآن باني قد وقفت قلبي على سبيل هواكِ فاذا اجبتِني الى محبتي رأيتِ من هذه اليد ترساً يحميكِ من اعظم المخاطر وكفاني ان اتحقق انكِ لي فلا ابالي ولو هاجمني الثقلان . فتساقطت الدموع من مقلتي مادلين وحنت رأسها على صدرهِ قائلةً أحبك وانت حياتي فالطف بحياتك اكراماً لي وعدني انك تكون أشدّ تحرزاً في المواقع المستقبلة فقد رأيت عنك في هذه الليلة احلاماً مزعجة . قال خففي عنكِ يا عزيزتي ولا تهتمي بهذه الخيالات الليلية فانما هي أضغاث أحلام وانا أعدكِ بأنني لا أفعل الا ما ترومين واختم وعدي لكِ بهذه القبلة

ولما بلغ امير اسكتلندا انهزام رجالهِ امام قلعة واركِ قامت قيامتهُ فجند جيشاً وآلى على نفسهِ ان لا يعود عن القلعة الا بعد ان يجعلها جثوةً على قبر الذين فيها . وفي ظهر اليوم الثاني كانت جيوش الاسكتلنديين

محيطة بالقلعة احاطة السوار بالمعصم وللحال أمر الامير الاسكتلندي بعض رجاله بردم الخنادق والبعض الآخر بنقب الجدران فهبّوا الى العمل غير مبالين بالاسهم النازلة عليهم نزول المطر وكان اذا سقط الواحد اخذ الثاني مكانهُ الى ان ثغروا السور الخارجي ودخلتهُ بعض الجنود . فلما رأى السير وليم ذلك صاح « لحارسنا القديس جاورجيوس ولوطننا العزيز » ثم اخترط سيفهُ وهجم واقتدت بهِ فرسانهُ لسدّ الممرّ الذي فتحهُ الاسكتلنديون وكان عدد الاعداء يتزايد وفرسان القلعة يقل عددها وكانت الكنتة ومادلين في أعلى القلعة تراقبان حركات المقاتلين فابصرتا من فعال السير وليم ما تعجز عنهُ الابطال ولكن رأتا من كثرة عدد العدوّ ما ايقنتا معهُ بضياع الامل فاخذتا تجيلان الرأي فيما ينبغي صنعهُ . فقالت مادلين عندي امرٌ واحد اظن فيهِ الخلاص ولكن فيهِ خطراً شديداً قد لا يمكن اجتيازهُ . . وبينا هي تتكلم اذ وصل اليهما السير وليم وكان قد جاء ليتفقد حالتهما فسمع كلام مادلين فقال قولي يا عزيزتي ما الرأي الذي سنح لك . قالت ان الملك ادورد الآن في يركشاير على مسافة قريبة من هنا فلو أمكن وجود من يخاطر بنفسهِ فيخترق صفوف الاعداء ويبلّغ الملك أمرنا لأتتنا النجدة في الحال تخلصنا وهلاك الاسكتلنديون . قال وليم لا جرم ان هذا هو الرأي ولكن من اين نعلم ان ادورد في يُركشاير وآخر خبر بلغنا انهُ في داخلية البلاد . قالت قد علمت ذلك من احد الاسرى اذ كنت اعالجهُ امس . قالت الكنتة ولكن هل يوجد بين ابطالنا من يجترئ على اقتحام هذا الخطر . قال وليم انهم جميعاً قد اضناهم الجوع والتعب فلا اظن ان عندنا من يقدم

على هذا الامر الكبير غير واحد وسارسلهُ عند منتصف الليل . ثم اسرع الى رجالهِ يصدر الاوامر ويشدد القتال وكان بين رجالهِ بطلٌ يدعى أُنسلم فسلَّم اليهِ القيادة وجهزهُ بالاوامر اللازمة ولما انتصف الليل اسرج وليم جوادهُ وتدجج بسلاحهِ واطلق لجوادهِ العنان . ورأتهُ الكنتة فصاحت يالك من شجاع يا وليم فلا عدمتك بريطانيا اما مادلين فسترت بيديها عينيها الداميتين وقالت ويلاه انا السبب في هلاكهِ . وكانت الليلة حالكة والبرد قارساً والرعود تقصف والجيش الاسكتلندي نائمٌ وحرسهُ غافلون اذ لم يخطر لهم امكان حدوث مثل هذا الامر نخلص السير وليم وبلغ يركشاير وما وقع الخبر على سماع الملك ادورد والارد وارك حتى نهضا برجالهما متوجهين لتخليص القلعة . وفي صباح اليوم الثاني نهض الاسكتلنديون لمعاودة القتال ولكن بلغ اميرهم ان الملك ادورد قادمٌ بجيشٍ كعدد الرمال فتراجع عن القلعة ولما كان الليل التالي سار تحت ظلمتهِ فاوغل برجاله في البيداء وكان فرارهُ قبل وصول الملك ادورد بساعاتٍ قلائل

ولما وصل الملك فُتحت ابواب القلعة للقائه وقابلتهُ ابنة عمهِ جوان بالترحيب وصافح السير وليم مادلين وقد قرأ في عينيها آيات السرور والاعجاب بشجاعته وصرف الجميع ليلتهم بمسرةٍ وابتهاج . وفي الصباح التالي امر الملك ادورد بعض الفرسان بالمبارزة فتلثمت الابطال واصطفت في ميدان القلعة ونزع الملك من اصبعه خاتماً ثميناً فدفعهُ الى الكنتة لتمنحهُ جائزةً للفائز ثم هجم الرجال بعضهم على بعض ودارت رحى تلك الحرب الجدية الهزلية فمنهم من جرح ومنهم من أُسر وانجلت المكافحة عن اثنين لم يكلاّ

ولم تضعف عزائمهما وكانا بقوة واحدة فشخصت اليهما ابصار الجميع واذ ذاك سقط احدهما الى الارض فوثب الثاني اليهِ ووضع سيفهُ على عنقهِ لحظةً ثم رمى بالسيف الى الارض واخذ بيد غريمهِ فاقامهُ وقال انا اعلم ان الجواد كان سبب سقوطك والا لما تمكن احدٌ منا من صاحبهِ . ودعا الملك الفائز ليأخذ الخاتم من يد الكنتة فاقترب ولما اعطتهُ الخاتم قبل يدها ثم توجه توًّا الى حيث كانت مادلين فالبسها الخاتم وجثا امامها باحترام فعرفتهُ مادلين وصبغ وجنتيها الاحمرار . ثم امر الملك المتبارزَين ان يرفعا نقابيهما ففعل الفائز واذا بهِ السير وليم فاثنى عليه الملك ادورد وقبَّلهُ اخوهُ وارك ثم قال لهُ ادورد استعدَّ يا وليم لمرافقتي الى فرنسا فانني بحاجةٍ الى ساعدك فيها . ثم نظر الى الكنتة وقال من هي هذه الفتاة اللاطينة التي خصَّها السير وليم بمحبتهِ . قالت انها يتيمة يا عزيزي ادورد اتخذها وليم معبودةً لهُ . واذ ذاك اقترب المبارز الثاني ورفع نقابهُ فصاح الملك ماذا ارى اهذا انت يا اوبري . ووقعت الكلمة في سماع مادلين فنظرت الى الفتى فاذا هو اخوها فصاحت اخي وألقت بنفسها عليهِ فضمها اوبري الى صدرهِ وتعانقا طويلاً . فتعجب ادورد من ذلك الاتفاق وقال احمد الله على انتهاء مبارزة هذين الاثنين بسلام فانهُ لم يكن يخطر ببالي قطّ ان يكون احدهما اخاها والآخر خطيبها . ثم التفت الى اوبري وقال متى اتيت يا اوبري . قال اني اتممت اوامر جلالتكم وبعد ان عدت بلغني حضوركم الى هنا فوصلت حين كانت الفرسان تستعد للبراز فدخلت معها وقد اتيت لاخبر جلالتكم ان الجنود على اتمّ الاستعداد للسفر الى فرنسا

وبعد ان قضوا بضعة ايام صفـآء سار ادورد بجيوشهِ مصحباً معهُ السير وليم واوبري فانضم الى بقية عساكرهِ وسافر الى فرنسا تاركاً مادلين المسكينة حزينةً لفراق حبيبها واخيها . ومضى عليها سبع سنوات كان ادورد يتنقل في اثنآئها الى حيث تدعوهُ الحرب فلم يتمكن المحب من زيارة حبيبتهِ ولا الاخ من مشاهدة اختهِ

وبعد ما انقضت الحرب وعاد ادورد الى لندن احيا في نفس الليلة التي وصل فيها ليلة انس دعا اليها عظمآءهُ وفي مقدمتهم ابنة عمهِ الكنتة جوان . وحضر ايضاً اوبري ووليم رغبةً في مشاهدة مادلين ولكن سآء فألهما فان الكنتة كانت بعد ان سمعت الملك يطنب في صفات مادلين لعبت في رأسها نيران الغيرة فطردتها فانطلقت المسكينة الى بيت تاجرٍ كان خادماً عند والدها فاقامت عندهُ

وكان الملك ادورد يتخطر في غرفتهِ بين المدعوّين وقد طوّق بذراعهِ خصر الكنتة وبينا هما كذلك سقطت عصابة ساق الكنتة الى الارض وكانت محبوكةً بالجواهر والحجارة الكريمة فانحنى الملك امامها والتقطها . ورأى الحاضرون ذلك فضحك بعضهم فاخذ الملك العصابة ووضعها على فخذهِ اليسرى وقال « ليخزَ كل من ظنّ سوءًا » ثم نظر الى ابنة عمهِ وقال سوف يفتخر اعظم الرجال في العصور المقبلة بشرف الحصول على هذا الوسام . وكان كذلك

اما وليم واوبري فلما لم يريا مادلين خرجا من قصر الملك وجعلا يبحثان عنها حتى بلغهما ما ذكرناهُ . وكان في ذلك الحين قد انتشر الوبآء الشهير في

انكلترا فسارا وهما يمرّان بالجثث الملقاة في الشوارع ويسمعان النداء بالويل فكانا صامتين يفكر كلٌّ منهما في مادلين ويود ان يطير للقياها وهما يحسبان حسابات شتى . ولم يزالا يحثان حتى بلغا بيت التاجر الذي كانت عنده فسألا عنها وهل هي باقية في قيد الحياة فقال الرجل نعم انها قد نجت مع اهل بيتي من آفات الوبآء باذن الله واذا كنتما تودّان مشاهدتها فما عليكما الا ان تنتظراها ساعةً ريثما ترجع . فقال السير وليم والى اين ذهبت في مثل هذا الوقت . قال لا اعلم يا سيديَّ غير اني اقول انها مَلَكٌ في صورة انسان وقد كانت كل هذه المدة تذهب لمساعدة المصابين وتعزيتهم غير مباليةٍ بالاخطار . فجلس وليم واوبري وافكارهما تائهة في مهامه الخوف وهما يحسبان الدقائق اعواماً واذا بالباب قد فتح ودخلت مادلين وقد اكتسب وجهها جمالاً جديداً فاضاء بنور سماويٍّ فهجم الاثنان عليها يقبلانها ويضمانها الى افئدتهما. ثم قال السير وليم هلمّ بنا نهرب عاجلاً الى فرنسا فان من يسكن هنا لا يأمن خطر هذا الوبآء . فقالت مادلين لم اعهدك جباناً يا وليم أتهرب . . واذا نجوت من الموت هنا أفلعل البلاد التي تهرب اليها لا موت فيها . فجعل وليم يتذلل لها ويبرهن لها انهُ يريد الهرب خوفاً عليها ليس الا . وبينما هم جالسون تنهدت مادلين فنظرا اليها واذا بحمرة خديها قد انقلبت الى اصفرار ثم اظلمت عيناها فالقت رأسها على صدر حبيبها ويدها على كتف اخيها ولاح على وجهها ظل الموت فان الوبآء كان قد اصابها. فذُعرا لهذا المنظر وصاحا باهل البيت ليدركوهم بالطبيب فما كادوا يلبونهما حتى شهقت وفاضت روحها بين صدري حبيبها واخيها
